خـــاصـــرة لبـــــنان الشـــرقية

بقلم عدنان شعبان

ان الاهمية الحقيقية لما يقال تكمن في اعتماده مقياسين:

أ- صحة القول واختيار توقيته.

ب - المناسبة والطريقة.

ان اهمية ما جاء في نداء بكركي الشهير، رغم الضجة التي احدثها والجدل الذي اثاره، تكمن في الشـــق المتعلق بالوجود العسكري السوري في لبنان وفي اماكن هذا الوجود.

واكبت احلام اللبنانيين خطوات العهد الحالي، فزرع اللبنانيون قلوبهم على طريقه وعبّدوا ذلك الطريـــق بزهور آمالهم ودموع فرحهم وقدس صلواتهم.

توجه اللبنانيون الى الرئيس عن طريق صمتهم البليغ قائلين: "مرنا فنستجب، نادنا فنلبِ، جيّشـــنا فننتظـــم صفوفاً، انفخ فينا نار الواجب فنتحول جنوداً، اطلب الينا ما شئت، فرغباتك اوامر. في المقابل اعدنا الـــى ذواتنا، الى بعضنا، الى لبنان، اعده الينا وطنـــاً معـــافى، بخصوصيتـــه المتمـــيزة، بحريتـــه الخفاقـــة، بديموقراطيته العريقة، التي اتت الحروب المتتالية والمفتعلة عليها جميعاً. داستها اقدام الجيوش المتناوبـــة عليها من دولية وعدوة، من شقيقة وصديقة. وحّد بنا ولنا مفهوم الوطنية، سوِ لنا هذا المفهوم الحاد الزوايا والذي تقاربه الفئات اللبنانية من رؤى متفاوتة. اذا تيسر لكم يا سيدي تحقيق كل هذا تعيدون لبنان جنـــة ارضية".

رئيس وناخب وثقة

ان "مسيحية" الرئيس دفعتنا وتدفعنا - متمسكين بالصدقية - الى اعتماد قولي الســـيد المســـيح أ: "ليكـــن كلامكم نعم نعم او لا لا"، ب: "مرتا مرتا تهتمين بأشياء كثيرة والمطلوب واحد".

ان شفافية الرئيس، جرأته وخطابه البرنامج القسم سمحت وتسمح للبنانيين بمطالبة فخامته بترجمة اقدامـــه ونواياه ترجمة شجاعة ثلاثية الضلع هي:

أ- شجاعة تعتمد الحقيقة، تجسد المثل والمثال في صون الحق قولاً وممارسة، تتجنب اختيار القـــرارات ذات الشعبية الآنية، تعتمد الاستراتيجيا والأهمية مقياساً لاختيارها وتوقيت هذا الاختيار.

ب- شجاعة في الاقدام على اتخاذ الخطوات الكفيلة استرجاع السيادة والاستقلال الناجزين، وحرية القـرار الوطني اللبناني.

ج- شجاعة تصل الى حدود رفض السلطة والتخلي عن الحكم اذا غدا صورياً وذلك في حال عدم التمكـن من تأمين اي ضلع من الضلعين الاولين أ و ب.

الثقة المطلوبة والثقة المعطاة

خلال فترة توليه قيادة الجيش، قيل في كلمة الرئيس العماد ووضوح رؤيته ونجاحه في بناء جيش وطني واعتماده عقيدة قتالية عربية للجيش اللبناني، ما لم يقله مالك في الخمرة.

انهمرت عليه الشهادات والاشادات و"كلها لا تفيه حقه" لكنه رغم ذلك، فقد تمركزت قوة سورية رمزية ولا تزال الى يمين المدخل المؤدي الى مبنى قيادة الجيش ومبنى وزارة الدفاع تمتد من قاعدة تمثال الامير فخر الدين المعني الثاني الكبير حتى مدخل المبنى "سقى الله الايام التي كان خلالها في لبنان كبار امثال فخرالدين الذي هزم وفي عنجر بالذات والي الشام التركي".

ربأنا بأنفسنا حينها كما نربأ الآن بالظن ان تمركز القوات المذكورة كان ولا يزال مولجاً بحماية قرار قيادة الستين الف جندي لبناني.

نجد انفسنا الآن ملزمين تفسير هذا الوجود القديم والمستمر، ونتمنى ان نكون مخطئين – متسائلين:

-هل هذا الوجود موجه الى الخارج عبر ممثلي هذا الخارج في لبنان، الذين ولجوا ويلجون في مناسبات عديدة، ولأسباب متعددة، مبنى القيادة؟

اما قصر الرئاسة في بعبدا ومنذ انتقال رئيس الجمهورية السابق الياس الهراوي اليه حتى اليوم فلم يكن وضعه افضل، رغم ما قيل في الرئيس الهراوي، الذي حيكت حول عروبته الأساطير والذي اعتبر مهندس العلاقات اللبنانية – السورية الاخوية والذي صنف بـ"الرئيس التاريخي"، لكنه رغم ذلك كله لم يستطع طيلة فترة ولايته الاولى ومع نصف التمديد ان يؤمن للمقر الرئاسي طريقاً لبنانياً صرفاً.

صحيح ان هذه القوات لا تقيم حاجز تفتيش، لكنها تُرى بأم العين الى اليمين واليسار من الطريق المؤدية الى القصر الجمهوري، ومعها ترى اساتين المدافع وترى الدبابات.

مع انتقال مسؤولية الرئاسة الى العماد لحود، استمر التمركز السوري ولا يزال. ينقص اللبنانيين الكثير من البراءة كي يقبلوا ان مثل هذا الوجود العسكري الرمزي فرضه بيان تمركز يأخذ في الحسبان الضرورات الحيوية للقوات السورية العاملة في لبنان.

ان القارئ السياسو – عسكري يعرف تمام المعرفة ان هذا الوجود هو رسالة الى زوار القصر الجمهوري خاصة الاجانب منهم والديبلوماسيين بوجه أخص، ترمي الى افهامهم ان القصر ومن فيه، وما يقال فيه من آراء او يُتبادل من افكار كلهم وكلها تحت حماية هذه الفوهات التي يشاهدها الزائر صعوداً ونزولاً.

اذا تماشى ما يقال لهم اثناء زيارتهم مع المصلحة والاستراتيجيا السوريتين، يمكن اعتباره معطى صحيحاً يسمح لهم باعتماده حقيقة لدى رفع تقاريرهم واقتراحاتهم الى حكوماتهم، اما في حال تناقضه مع مصلحة

سوريا فالكلمة الاخيرة هي للمدافع وللدبابات وللقوات المتمركزة على طريق القصر والتي لا يفصلها عن شاغليه، الا بضع مئات من الامتار.

ان الوجود العسكري السوري الرمزي على مدخل مبنى القيادة ووزارة الدفاع، وعلى طريق القصر الجمهوري هو دليل ساطع على عدم اكتمال ثقة السوريين بشاغلي المنصبين – مع احترامي شخصياً لكليهما السابقين والحاليين.

اما كل مظاهر المودة وخطابات التقدير والاشادة بالدور السوري في لبنان على ألسنة بعض اللبنانيين المنتفعين فما هي إلا تزلف ومداهنة . اما سكوت بعضهم الآخر فمرده الى عجز هذا البعض واضطواره للتعامل مع هذا الدور بباطنية في انتظار تحيّن ظروف تسمح بتغيير هذه الاوضاع الشاذة. والامور الى تغيير قصر الوقت ام طال، سيصبح معها المقيد مبرراً والمغالي في التخير مبالغاً في الشتيمة، والمتسابق الى التزلف والانسحاقية متحيّناً للطعن من الخلف والتشهير بالدور السوري

"من لا يستطيع القليل لا يستطيع الكثير"

اذا كان لبنان الشعبي والرسمي، عاجزا عن تأمين طريق حر، من وجود عسكري غير لبناني، الى حرم القصر الجمهوري ومبنى قيادة الجيش ووزارة الدفاع، فهل يعقل ان يكون الرئيس والقائد قادرين على اتخاذ قرارات كبيرة، كفيلة انقاذ الوطن من عثراته ومشاكله المستعصية؟ المشاكل التي تتوجها مصادرة اخوية للقرار تسمح سوريا لنفسها بموجبها ليس رسم سياسة لبنان فحسب، بل فرضها، كما تسمح لنفسها برسم مستقبل اجيال لبنان الشابة الطالعة. هل يعقل ان ترى احلام الحرية النور في هذا الليل المظلم من الثقة المفقودة حينا، المتذبذبة احيانا والمنقوصة دائما؟

ان السؤالين المؤشرين اعتبرا منذ اطلالة العهد مقياسا لتغيير الاوضاع في لبنان الى الافضل. تغيير يعكس ثقة حقيقية بالرئيس كمرجعية وبالشعب اللبناني كشقيق عملاً بمبدأ الاخوة المتكافئة، اخوة الانداد، لكن عدم تحرير الطريقين حتى الان، عكس عدم اكتمال الثقة سورياً بالرئيس وعكس اعتماد سوريا اخوة فوقية مع اللبنانيين.

التمركز السوري الاستراتيجي

تقر اغلبية اللبنانيين الساحقة، وعن اقتناع، بحق تمركز سوري استراتيجي، سماه الاستاذ وليد جنبلاط تموضعا وذلك بغية حماية خاصرة سوريا الغربية. تتقن غالبية اللبنانيين، ومن ضمنها الاستاذ وليد جنبلاط، اشياء كثيرة لكن الاستراتيجيا في مفهومها العسكري، ليست بين هذه الاشياء. لهذه الاغلبية اقول: ان التمركز السوري في لبنان لدواع استراتيجية مرفوض، خصوصا تحت ذريعة حماية خاصرة سوريا الغربية، وذلك للاسباب الآتية:

اولا: لم تستعمل الاراضي اللبنانية مسلكا لدخول العدو الاسرائيلي الى سوريا مـــرة واحـــدة. واحتـــلال الجولان اثناء حرب الايام الستة عام ١٩٦٧ خير شاهد على ذلك.

اما اعتبار التمركز المطلوب سورياً والمقبول لبنانياً بهدف تفادي اعتداءات اسرائيلية جوية على ســـوريا، فهو مرفوض كذلك، لأن الاوضاع التي سمحت لسوريا بدخول لبنان عام ١٩٧٦ عبر الاتفاقـــات غـــير المكتوبة بينها وبين الولايات المتحدة الاميركية، التي ايدت، طالبت بل فرضت هـــذا الدخـــول مشـــروطا ومقيدا بخطوط حمراء وهمية لكنها قائمة كحقيقة جغرافية، احترامها عملي. حددت تلك الاتفاقات عمق هذا الدخول، نوع الاسلحة المسموح بادخالها. فحظيت بموافقة اسرائيل على الوجود العسكري الســـوري فـــي لبنان. منع الاتفاق ادخال الاسلحة التي تقيد حركة السلاح الجوي الاسرائيلي الذي رفض القبول بادخـــال انواع معينة من الصواريخ وهكذا يصبح التمركز الاستراتيجي تحت هذه الذريعة غير مقنع وبالتالي غـــير ضروري.

ثانيا: رغم سيطرة اجواء المواجهة العسكرية حاليا ومع قرع طبولها بسبب انتفاضة الاقصى، يبقى المنحى العام بين سوريا واسرائيل سائرا في اتجاه السلام. ان وقف مفاوضات السلام الجدية التـــي دارت بينـــهما سابقا اكدت خيارهما الاستراتيجي له. عكست اهمية وفديهما الى تلك المفاوضات التي مثل فيها الجـــانب السوري، العماد الاول المتقاعد، رئيس الاركان السورية آنذاك، العماد حكمت الشهابي، الرجل الثاني فـــي سوريا آنذاك قابله عن الجانب الاخر الجنرال امنون شاحاك رئيس اركان الجيش الاسرائيلي فـــي حينـــه ووزير البيئة في حكومة العدو حاليا.

اقتصر المانع العلني لتوقيع اتفاق السلام السوري – الاسرائيلي، على خلاف حول بضع عشـــرات مـــن الامتار، على احدى ضفتي بحيرة طبريا.

مع تيسر العودة الى المفاوضات – والآتية بلا ريب وبأسرع مما يتوقع الكثيرون – لن يشكل هذا الخلاف الصغير المعبّر عن تمسك سوريا بحقها. الواضح، باصرارها الاكيد على استعادة كامل الجولان، المتمثـــل بانسحاب اسرائيل الى حدود الرابع من حزيران عام ١٩٦٧، لأن اتفاقا كبيرا في هذا الحجم ينهي الحـــوب العربية – الاسرائيلية ويلغي حالة العداء، مانعا، لاتفاق تجمع الاطراف جميعها على حاجتها اليه.

ان هذا الاتفاق المنتظر والقادم بلا محالة، يلغي ذريعة الحاجة الى التمركـــز الســـوري الاســـتراتيجي او تركزه حتى في البقاع.

ثالثا: في ليل العرب المظلم، في تاريخ حروبهم الموشحة بالهزائم، امام العدو الاسرائيلي – باستثناء حرب رمضان، في العام ١٩٧٣ التي يمكن اعتبارها نصف ربح او نصف خسارة، برزت شمعة مضيئة واحـــدة هي المقاومة اللبنانية – رغم الطابع الاسلامي الطاغي عليها كماً ونوعاً، تضحية وجهاداً، لأننا مســـلمين

ومسيحيين، لبنانيو الهوى، وللهوى افضلية مطلقة على الهوية. دعمها جيشنا الوطني المقـدام، احتضنـها شعبنا الابي الصامد الصابر، المقاوم البطل، فرضت مجتمعة على العدو الاسرائيلي انسحابا مـذلا كـان الاول في تاريخه امام العرب، فاستعيدت ارض عربية محتلة وللمرة الاولى بالقوة، وليس عـن طريـق الاستجداء، المفاوضات او الاتصالات المشبوهة. هنا اتوجه الى المقاومة البطلة قائلا: "ان دورك وفداءك، ان استشهاد ابطالك وقوة عزيمتك وصحة قرارك شكلت عاملا مقررا لانسحاب اسرائيل مهزومـة. فيـا غالية، وكي لا تصابي بلوثة الغرور، الفتك الى انك لم تكوني العامل الاوحد.

-ان الرأي العام الاسرائيلي كان عاملا. (حركة الامهات الاربع).

-ان حاجة اسرائيل لجبهة شمالية هادئة شكلت عاملا.

-ان الولايات المتحدة لحماية مصلحة امنها القومي، كانت عاملا.

-ان منظمة الامم المتحدة خاصة بدولها الفاعلة كانت عاملا.

لكن دورك وبطولاتك وتضحياتك بقيت العامل الابرز.

ان اسرائيل لن تفكر يوما في اجتياح لبنان ثانية وخصوصا عبر الجنوب تفاديا لعقدة الهزيمة المرّة التـي تعيشها.

ان ما اخشاه هو عودة اسرائيل لمثل هذا الاجتياح ولأسباب معينة، ولكني متأكد ان مثل هذه العـودة لـن تكون عبر بوابة الجنوب. لذلك، وتفاديا لهذا الاحتمال، اطالب ليس فقط بانهاء التمركز السوري في لبنان. بل اطالب سوريا في المقابل بالاستعانة بتمركز العظيم من المقاومة اللبنانية، الوطنية الاسلامية، الظـاهرة الاستثنائية ومعها بعض من الوية الجيش اللبناني، في سوريا نفسها، لاستعادة الجولان بالقوة. اذا لم تتوافر شروط عودتها سلميا – ولحماية خاصرة لبنان الشرقية دائما.

ان حرية القول والرأي حلم يراود الجميع لكنه حقيقة يقتصر الاعلان عنها والمجاهرة بـها علـى اقليـة صادقة مع نفسها، ووطنها وعروبتها.

اقلية شجاعة، من اجل لبنان تحيا، تحفظ لسوريا المودة، اقلية مؤمنة تعيش الحـاضر، تواكـب حركـة التاريخ، تلتحق بالعصرنة، تنفتح على آفاق المستقبل. اقلية تدرك ان كل غيوم الكون، حقيقية ومصطنعـة، لا تستطيع حجب شمس واحدة من شموس الحق والحرية. (جريدة النهار ٢٠٠٠/١١/٢١)